بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الطُّرْطُوشِيُّ الْمالِكِيُّ (الْمُتَوَفَّ : ٥٤٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَمِثَالُ السُّلْطَانِ الْقَاهِرِ لِرَعِيَّتِهِ ، وَرَعِيَّةٍ بَلَا سُلْطَانٍ مِثَالُ بَيْتٍ فِيهِ سِرَاجٌ مُنِيرٌ، وَحَوْلَهُ قِيَامٌ مِنَ النَّاسِ يُعَالِجُونَ صَنَائِعَهُمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طُفِئَ السِّرَاجُ فَقَبَضُوا أَيْدِيَهُمْ فِي الْوَقْتِ ، وَتَعَطَّلَ جَمِيعُ مَا كَانُوا فِيهِ ، فَتَحَرَّكَ الْحَيَوَانُ الشِّرِّيرُ وَتَخَشْخَشَ الْهَوَامُّ الْخَسِيسُ ، فَذَبَّتِ الْعَقْرَبُ مِنْ مَكْمَنِهَا ، وَفَسَقَتِ الْفَأْرَةُ مِنْ جُحْرِهَا ، وَخَرَجَتِ الْحَيَّةُ مِنْ مَعْدَنِهَا ، وَجَاءَ اللِّصُّ بِحِيلَتِهِ ، وَهَاجَ الْبُرْغوثُ مَعَ حَقَارَتِهِ ، فَتَعَطَّلَتِ الْمَنَافِعُ ، وَاسْتَطَالَتْ فِيهِمِ الْمَضَارُّ.

كَذَلِكَ السُّلْطَانُ إِذَا كَانَ قَاهِرًا لِرَعِيَّتِهِ ، وَكَانَتِ الْمَنْفَعَةُ بِهِ عَامَّةً ، وَكَانَتِ الدِّمَاءُ بِهِ فِي أُهُبِهَا مَحْقُونَةً ، وَالْحَرَمُ فِي خُدُورِهِنَّ مَصُونَةً ، وَالْأَسْوَاقُ عَامِرَةً ، وَالْأَمْوَالُ مَحْرُوسَةً ، وَالْحَيَوَانُ الْفَاضِلُ ظَاهِرًا ، وَالْمَرَافِقُ حَاصِلَةً ، وَالْحَيَوَانُ الشِّرِّيرُ مِنْ أَهْلِ الْفُسُوقِ وَالدَّعَارَةِ خَامِلاً ، **فَإِذَا اِخْتَلَّ أَمْرُ السُّلْطَانِ دَخَلَ الْفَسَادُ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَلَوْ جُعِلَ ظُلْمُ السُّلْطَانِ حَوْلًا فِي كِفَّةٍ كَانَ هَرْجُ**

النَّاسِ سَاعَةً أَرْجَحَ وَأَعْظَمَ مِنْ ظُلْمِ السُّلْطَانِ حَوْلًا ، وَكَيْفَ لَا ؟ وَفِي زَوالِ السُّلْطَانِ ، أَوْ ضَعْفِ شَوْكَتِهِ سَوْقُ أَهْلِ الشَّرِّ ، وَمَكْسَبُ الْأَجْنَادِ ، وَنِفَاقُ أَهْلِ الْعِيارَةِ وَالسُّوقَةِ وَاللُّصُوصِ وَالمَنَاهِبَةِ .

قَالَ الْفُضَيْلُ : جَوْرُ سِتِّينَ سَنَةً خَيْرٌ مِنْ هَرْجِ سَاعَةٍ ، فَلَا يَتَمَنَّى زَوالَ السُّلْطَانِ إلّا جَاهِلٌ مَغْرُورٌ أَوْ فَاسِقٌ يَتَمَنَّى كُلَّ مَحْذُورٍ ، فَحَقِيقٌ عَلَى كُلِّ رَعِيَّةٍ أَنْ تَرْغَبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي إِصْلاحِ السُّلْطَانِ ، وَأَنْ تَبْذُلَ لَهُ نُصْحَهَا وَتَخُصَّهُ بِصَالِحِ دُعَائِهَا ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ صَلاحَ الْعِبَادِ وَالْبِلادِ ، وَفِي فَسَادِهِ فَسَادُ الْعِبَادِ وَالْبِلادِ .

وَكَانَ الْعُلَمَاءُ يَقُولُونَ : إِنِ اِسْتَقَامَتْ لَكُمْ أُمُورُ السُّلْطَانِ فَأَكْثِرْ وَاحْمَدِ اللهَ تَعَالَى وَاشْكُرْهُ ، وَإِنْ جَاءَكُمْ مِنْه مَا تَكْرَهُونَ وَجِّهُوهُ إِلَى مَا تَسْتَوْجِبُونَهُ مِنْه بِذُنُوبِكُمْ ، وَتَسْتَحِقُّونَهُ بِآثَامِكُمْ ، فَأَقِيمُوا عُذْرَ السُّلْطَانِ بِانْتِشارِ الْأُمُورِ عَلَيه ، وَكَثْرَةِ مَا يُكَابِدُهُ مِنْ ضَبْطِ جَوَانِبِ الْمَمْلَكَةِ ، واستئلافِ الْأَعْدَاءِ ، وَرِضاءِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَقِلَّةِ النَّاصِحِ وَكَثْرَةِ الْمُدَلِّسِ وَالْفَاضِحِ .

" سِرَاجُ الْمُلُوكِ " (١/٣٨) لأَبي بَكْرٍ الطُّرْطُوشِيِّ .